مدخل
لدراسة السيرة النبوية

لفضيلة الأستاذ الدكتور
منيع عبد الحليم محمود
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
وعميد كلية أصول الدين بالقاهرة
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل لدراسة السيرة النبوية

لفضيلة الأستاذ الدكتور منيع عبد الحليم محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن وعميد كلية أصول الدين

بالقاهرة – جامعة الأزهر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه الأطهار الطيبين أفضل الصلاة، وأتم التسليم.

وبعد

يقول الله تعالى معبراً عن الحكمة فى إرسال سيد الخلق ﷺ : ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾(١).

ومن دعاء سيدنا إبراهيم، وسيدنا إسماعيل، وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(٢).

من هذه الآيات ومن غيرها: نعلم أن الحكمة فى إرسال الرسل، إنما هى تبلغ آيات الله؛ أى: تعاليمه وأحكامه وتكاليفه إلى بنى البشر، إن الله تعالى: لم يرد أن يترك البشر دون هداية فى الأمور الأساسية؛ لبناء المجتمع وهى: العقيدة، والأخلاق، والتشريع، فأرسل لأهل الأرض الدستور السماوى الذى يؤدى اتباعه، والعمل به إلى تزكيه النفس، وتطهيرها وصفاتها.

فالأديان والرسل إنما كانوا لبيان الأسس والقواعد التى لا يقوم المجتمع الصالح بدونها، وكانوا أيضاً لمصلحة الفرد التى تتمثل فى الارتفاع به إلى مستوى التزكية، والطهر والصفاء، وهو مستوى يجد فيه

١- سورة الجمعة: ٢.

٢- سورة البقرة: ١٢٩.

من يحققه السعادة كل السعادة، والبهجة كل البهجة، ويشعر كل من يرتقى فى معارجه منغمساً فى نور هداية الله سبحانه بالسكينة تحيط به، وبالطمأنينية تملأ جميع أقطاره، ويشعر فوق كل ذلك رضوان من الله أكبر، حكمة إرسال الرسول ﷺ : إذن إنما هى إسعاد المجتمع، وإسعاد الفرد والرقى بالجميع وبالإنسانية إلى المستوى الذى يرضاه الله لهما، وهو المستوى الربانى.

يقول الله تعالى فى حديث قدسى: "من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه".

وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه فى قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية لأوليائه وأولياؤه هم:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ومن عاداهم فإنما يعادى المؤمن التقى، ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى: "آذنته بالحرب".

ثم يرسم الله تعالى الطريق إلى حبه: وأول خطوة فى هذا الطريق أداء ما فرضته عليه، ولن يتأتى حبه تعالى دون الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله.

لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا، كما يقول رسول الله ﷺ : "لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل" لابد من أداء الفرائض، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل، ومع أداء الفرائض فى جو القرب - الإكثار من النوافل، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله تعالى، ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذى ذكره الله سبحانه فى الحديث القدسى.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - ربطاً محكماً بين محبة الله تعالى، واتباع رسول الله ﷺ متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1].

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل.

١- سورة آل عمران: ٣١.

ومقدمات محبة الله تعالى هى العمل، ونتيجة محبة الله هى العمل، يقول الإمام أبو سعيد الخراز : وبلغنا عن الحسن البصرى ﷺ أن أناساً قالوا على عهد رسول الله ﷺ : يا رسول الله، إنا نحب ربنا حباً شديداً فجعل الله تعالى لمحبته علماً، وأنزل عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1].

فمن صدق المحبة اتباع الرسول ﷺ فى هديه، وزهده وأخلاقه، والتأسى به فى الأمور كلها، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها، فإن الله عز وجل جعل سيدنا محمداً ﷺ علماً ودليلاً، وحجة على أمته.

ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبته تعالى فى جميع الأمور على نفسك، وهواك، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك، ويقول: فعلامة الحب الموافقة للمحبوب، والتجارى مع طرقاته فى كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه، أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالى يقول: وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة، إذ قال أبو رزين العقيلى: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: "أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما".

وفى حديث آخر: "لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين"، وفى رواية: "ومن نفسه". كيف وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2]، وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار.

وهى أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان، يقول رسول الله ﷺ : "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:

١- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢- وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

٣- وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النهار.

١- سورة آل عمران: ٣١.

٢- سورة التوبة: ٢٤.

ورسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة فى أقواله، وأفعاله، وأحواله.

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[1].

ويقول الشيخ الصاوى فى شرحه على تفسير الجلالين "الاقتداء برسول الله ﷺ واجب فى الأقوال والأفعال، والأحوال؛ لأنه لا ينطبق عن هوى، ولا يفعل عن هوى، بل جميع أفعاله، وأقواله وأحواله عن ربه".

لذا قال العارف:

وحصل بالهدى فى كل أمو   فليس تشاء إلا ما يشاء

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[2]، وإذا كان الاقتداء برسول الله ﷺ واجبا فإن له شروطا لا يتأتى الاقتداء الصحيح إلا بتحقيقها، وقد ذكرت الآية الكريمة هذه الشروط، والشرط الأول منها: أن يرجو الإنسان الله تعالى:

ورجاء الله تعالى قد حدده الله سبحانه فى القرآن الكريم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا﴾[3]، فالعمل الصالح، وعدم الشرك فى العبادة أمران لازمان لمن كان يرجو لقاء الله فى صدق.

ويقول الإمام ابن كثير فى ذلك:

وهذا ركنا العمل المتقبل: لابد أن يكون خالصاً لله، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ ، وعن طاوس قال: قال رجل: يا رسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطنى، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، حتى نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا﴾[4].

١- سورة الأحزاب : ٢١.

٢- سورة النجم: ٣، ٤.

٣- سورة الكهف: ١١٠.

٤- سورة الكهف: ١١٠.

رجاء اليوم الآخر هو الشرط الثانى، والتأسى برسول الله ﷺ إنما يتمثل فى العمل لهذا اليوم حتى يلقى الله فيه، وهو عنه راض.

ويصف الله سبحانه الذين لا يرجون لقاءه، ولا يرجون اليوم الآخر فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

والشرط الأخير فى الوصول إلى التأسى برسول الله ﷺ هو الذكر الكثير، ولقد سأل رجل رسول الله ﷺ قائلاً: إن شرائع الإسلام كثرت على، فأخبرنى بشئ أتشبث به، فقال له ﷺ : "لا يزال فوك رطباً من ذكر".

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

كان أصحاب رسول الله ﷺ يقتدون به فى كل شئ

أخرج البخارى، ومسلم، ومالك والترمذى والنسائى وابن ماجه عن سعيد بن يسار قال: كنت مع ابن عمر ﷺ فى طريق مكة فلما خشيت الصبح نزلت فأوترت، فقال ابن عمر رضى الله عنهما: أليس لك فى رسول الله أسوة حسنة؟ قلت: بل. قال: فإنه كان يوتر على البعير.

وأخرج البخارى ومسلم والنسائى وغيرهم عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سئل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امرأته قبل أن يطوف بين الصفا والمروة، ثم قرأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3].

أخرج أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عمر ﷺ أكب على الركن فقال: إنى لأعلم أنك حجر، ولو لم أر رسول الله ﷺ قبلك، واستلمك ما استلمتك وما قبلتك ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَ﴾[4].

١- سورة يونس: ٧ ، ٨.

٢- سورة الجمعة: ١٠.

٣- سورة الأحزاب: ٢١.

٤- سورة الأحزاب: ٢١.

من أجل هذه الأسس الأصيلة فى الإسلام منهج الحب والاتباع، أو منهج العبودية كان كتاب المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للشيخ أحمد بن محمد السقطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ هـ ، وهو حلقة هامة فى سلسلة طويلة من الكتب المباركة التى تناولت سيرة المصطفى ﷺ، والقرآن هو المصدر الأول الذى تستمد منه صفات الرسول وأخلاقه ﷺ ، سئلت السيدة عائشة - رضوان الله عليها - صلوات الله عليه وسلامه - حديثاً مباشراً يرسم القواعد فى العقيدة، والأخلاق، ويصور فى الوقت نفسه الطريق الذى كان يسير عليه السراج المنير الرءوف الرحيم - صلوات الله وسلامه عليه - فالقرآن إذن المصدر الأول الذى تستمد منه صفات الرسول، وأخلاقه ﷺ.

والمصدر الثانى هى كتب الأحاديث الصحيحة، وخيرها صحيح البخارى يليه صحيح مسلم، وكل كتاب من كتب الأحاديث على وجه العموم يخصص قسماً منه لصفات الرسول ﷺ وأخباره، ثم يأتى فى المرتبة الثالثة كتب السيرة القديم منها والحديث.

ومن خير كتب السيرة سيرة ابن هشام، والمواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلانى، وكتاب الأنوار المحمدية للعارف بالله يوسف النبهانى.

والإمام أحمد بن محمد القسطلانى مؤلف المواهب اللدنية بالمنح المحمدية من قمم علماء عصره، فكان إماماً حافظاً متقناً جليل القدر حسن التقرير والتحرير، لطيف الإشارة بليغ العبارة حسن الجمع، والتأليف لطيف الترتيب والترصيف زينة أهل عصره ونقاوة ذوى دهره، ولا يقدح فيه، تحامل معاصروه عليه فلا زالت الأكابر على هذا فى كل عصر.

هكذا وصفه علماء التراجم وذكر صاحب كشف الظنون مؤلفات عديدة له نذكر منها:

١- إرشاد السارى فى شرح صحيح البخارى.
٢- الإسعاد فى تلخيص الإرشاد.
٣- اللآلئ السنية.
٤- مراصد الصلات فى مقاصد الصلاة.
٥- النور الساطع فى مختصر الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع.
٦- يقظة ذوى الاعتبار فى موعظة أهل الاغترار.

ويوضح الإمام القسطلانى فى مقدمة كتابه المنهج العلمى الذى اتبعه فى تكوينه حتى أصبح من أهم المراجع فى السيرة النبوية المشرفة، والتى نعتبرها أيضاً أهم تفسير للقرآن الكريم فى كل العصور، وإلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها، ونعتبرها أيضاً الرد السليم على الإلحاد، ومهاجمة دين الإسلام فى عصرنا الراهن، ويعبر بحق عن الفهم العميق لنبوة الرسول ﷺ ما ذكره الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الإسلام - تقدس سره - مما يجعلنا ندرك قيمة هذا المصدر يقول:

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فى كثير من سوره، يقول سبحانه:

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾(١).

ويقول سبحانه:

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾(٢)

ويقول سبحانه:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٣)

ومن أجل هذه الصلة الإلهية برسول الله ﷺ أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى اتخاذ الرسول أسوة، فقال سبحانه:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (٤).

بل أمرنا سبحانه أن نأخذ ما آتانا، وأن ننتهى عما نهانا عنه، وهددنا إذا لم نلتزم ذلك، فقال سبحانه:

١- سورة الأحزاب: ٤٥ ، ٤٦.
٢- سورة النساء: ٨٠.
٣- سورة آل عمران: ٣١
٤- سورة الأحزاب: ٢١.

﴿وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

أما السر فى ذلك فهو:

١- أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لا ينطق عن الهوى، ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم، ولقد أقسم الله تعالى على ذلك فقال سبحانه:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2]

٢- كان رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فى جميع أحواله حركة وسكوناً، إشارة ونطقاً، قلباً وقالباً، يمثل القرآن الكريم، وقد كان - صلوات الله وسلامه عليه - تطبيقاً للقرآن، لقد لبس القرآن ظاهراً، وباطناً، لقد كان قرآناً.

ولقد وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها وصفاً دقيقاً حينما سئلت عن خلقه، فقالت: "كان خلقه القرآن".

ومن كان خلقه القرآن كان أسوة، وكان قدوة، وكان على خلق عظيم، ومن هنا وصف الله سبحانه وتعالى له إذ يقول:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3].

والحق، أننا حينما نريد أن نكون صورة واضحة تامة عن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فإن الطريق الوحيد لذلك: إنما هو الإحاطة واضحة تامة، والإحاطة بالقرآن على هذا النسق ليست من السهولة بمكان، بل ليست بممكنة: فالقرآن فى كل يوم يتفتح عن معانٍ جديدة للإنسانية، ويتفتح عن معانٍ جديدة للشخص المتأمل المتدبر: وهذه المعانى الجديدة إنسانية عامة، أو فردية خاصة، إنما هى إيضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة.

والعكس أيضاً صحيح، فإن المتدبر المتأمل فى الصورة النبوية الكريمة عن طريق السيرة الصحيحة، والأحاديث المعتمدة، يفهم عن

١- سورة الحشر: ٧.

٢- سورة النجم: ١ - ٤.

٣- سورة القلم: ٤.

الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - كل يوم جديداً، وهذا الفهم إنما هو تفسير وإيضاح لجوانب من القرآن الكريم.

لقد امتزج الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بالقرآن - كما قدمنا - روحاً وقلباً وجسماً، وامتزج القرآن به عقيدةً وأخلاقاً، وتشريعاً: فكان - صلوات الله وسلامه عليه - قرآناً يسير فى الناس، وكان القرآن روحاً ينتقل، وكان قلباً ينبض، وكان لساناً ينطق بالهداية والإرشاد.

ولقد كان - صلوات الله وسلامه عليه - حريصاً كل الحرص على أن يكون خلق الأمة الإسلامية القرآن، لقد عمل على ذلك طيلة بعثته.

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - من الأمة فيقول سبحانه:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله

ويتحدث - صلوات الله وسلامه عليه - عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول:

"مثلى ومثلكم: كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذهب عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى".

هذه هى صلة الرسول ﷺ بربه، وهذه هى صلته بأمته.

لقد ارتفع - صلوات الله وسلامه عليه - إلى السماء بل وتجاوزها إلى سدرة المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى، لقد ارتفع إلى الأفق الأعلى فانغمس فى الأفق الأعلى، وتلقى عن الله مباشرةً كيفية الصلة به، وهى الصلاة، ثم ... ثم انبسط إلى الأرض سراجاً منيراً، رءوفاً رحيماً، هادياً، يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه.

يقول أحد الصالحين: "صعد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - إلى السماء وتجاوز بذلك النهايات الكونية ثم عاد إلى الأرض لقد كان فعلاً أدنى من قاب قوسين، أقسم بالله لو صعدت إلى السماء لما حاولت العودة إلى الأرض مرة أخرى".

١- سورة التوبة: ١٢٨.

بيد أن الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – نبى ورسول فهو متصل بالله دائماً: إنه فى السماء على الدوام، وهو متصل بالبشر، يؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة، إنه كان على حد تعبير القرآن : ﴿بَشَراً رَسُولاً﴾ فهو ببشريته مع الناس، وهو بسره مع الله: إنه مع الناس بإرادة الله وتوجيهه وأمره، إنه مع الناس بكلمة الله ورسالته، إنه مع الناس رسول من قبل الله.

وبهذه المعانى كلها يمكننا أن نقول: إنه دائماً مع الله ويمكننا أن نقول: إنه – منذ اللحظة الأولى للبعثة – لم ينزل إلى الأرض قط ، وإنما كان دائماً مع الله سبحانه وتعالى، فهو صلوات الله وسلامه عليه – يبيت عند ربه، يقول ﷺ :

"لست كهيئتكم، أبيت عند ربى...".

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(١).

إنه – صلوات الله وسلامه عليه – "بشر"، وما يجول فى خلد مسلم قط أن يخرجه عن البشرية، ولكنه – صلوات الله وسلامه عليه – "بشر يوحى إليه".

وما يتأتى قط أن يوحى الله إلى بشر إلا إذا أصبح، وكأنه قطعة من النور: صفاء نفس، وطهارة قلب، وتزكية روح.

فمنتهى القول فيه أنه بشـ

وأنه خـير خلـق الله كلـ

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم، فتمر عليه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (٢). يقف عند كلمة: "بشر" فيحاول التركيز عليها وتوجيه الانتباه كله إليها، وتحويل الأنظار كلها نحوها، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية، ويبرزها، ويندفع فى هذا الاتجاه المنحرف اندفاعاً لا يتناسب قط مع قوله تعالى: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ بل إنه فى اندفاعته الهوجاء ينسى ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، ويهملها إهمالاً.

١- سورة الكهف: ١١٠.

٢- سورة الكهف : ١١٠.

إنه ليس بنادر فى هذا العصر الحاضر أن يجرؤ بعض الناس فيتحدث عن الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وعن خطئه – معاذ الله – فى الرأى، وعن إصابته فيه، ويسير هذا البعض فى حديثه، أو فى كتابته مستنتجاً ومستنبطاً وحاكماً، وينسى فى كل ذلك:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾(١)، وينسى فى كل ذلك:

﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، وينسى : "لست كهيئتكم"، وينسى:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾(٢).

وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لها حلول مختلفة، كلها صحيحة، بعضها رقيق رحيم، وبعضها عادل حاسم، وأن الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة الإسلامية أن رسوله – صلوات الله وسلامه عليه – وهو على صواب دائماً – إنما يتخذ الحل الذى يتناسب مع ما حلاه الله به من الرأفة، وما فطره عليه سبحانه من الرحمة، وهو الحل الذى يتناسب مع طابع الرسالة الإسلامية العام:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٣).

والله سبحانه ببيانه ذلك فى هذه المواضع التى كان من الممكن أن يقف فيها الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – مع العدالة الحاسمة، فعدل عن ذلك إلى الرأفة الرحيمة ... أن الله سبحانه وتعالى ببيانه ذلك، إنما يمدح الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – ويبين أن منزع الرحمة إنما هو الغالب عليه، صلوات الله وسلامه عليه.

ولم يلغ الله سبحانه اتجاهاً عاماً سار فيه الرسول، ولم ينقض قضية كلية أقرها – صلوات الله وسلامه عليه – ولم ينف مبدأ أثبته رسوله، فما كان – صلوات الله وسلامه عليه – يسير إلا على هدى من ربه، وعلى بصيرة من أمره، وقد شهد الله له بذلك حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ﴾(٤).

١- سورة النجم: ٣.

٢- سورة النور: ٦٣.

٣- سورة الأنبياء: ١٠٧.

٤- سورة الشورى: ٥٢، ٥٣.

وما فعل الله فى كل ما تمسك به المنحرفون، وتمحك فيه المتمحكون إلا بيان رحمة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وأنه - كما وصفه سبحانه - على خلق عظيم، والبون شاسع بين هذه الوجهة الربانية، وبين التحدث عن خطأ وصواب، وأوضاع بشرية يركز عليها، ولا يلتفت لسواها.

ولنضرب لذلك مثلاً: أن الذين ديدنهم الجدل يتحدثون كثيراً عن قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[1].

ويقذفون مباشرة بقولهم: إن العفو لا يكون إلا عن خطأ.

ولهؤلاء نقول: إن الأساليب العربية فيها من أمثال هذا لكثير، ومنها قولهم مثلاً: غفر الله لك، لم تشق على نفسك كل هذه المشقة؟

عفا الله عنك، لم تعنى نفسك فى سبيل هؤلاء؟ وكأن القائل يقول: رضى الله عنك، لم ترهق نفسك كل هذا الإرهاق؟

أن الآية القرآنية من هذا الوادى.

وضم هذه الآية الكريمة إلى أختها التى فى سورة النور:

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾[2].

تجد المعنى واضحاً جلياً، وهو أن الله سبحانه، فوض الأمر لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - فى أن يأذن لهم، أو لا يأذن.

ليس النبى إذن معاتباً بهذه الآية - وحاشاه - بل كان ﷺ مخيراً، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا، ولتخلفوا بسبب نفاقهم، وأنه مع ذلك لا حرج عليه فى الإذن لهم، إنها آية مدح للرسول غاية فى الرقة...، وعن هذه الرحمة الفياضة، كان الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - يصدر فى أحكامه، وما كان فى ذلك إلا متبعاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3].

وهكذا الأمر فى كل ما يمارى فيه الممارون.

١- سورة التوبة: ٤٣.

٢- سورة النور: ٦٢.

٣- سورة الأنبياء: ١٠٧.

ومع ذلك فإننا نريد أن نزيد الأمر وضوحاً فى الفرق بين من يركز على "بشر"، ومن يركز على "يوحى إلى"؛ لأهميته الكبرى، فنقص القصة التالية، ذات المغزى العميق، والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندرى ﷺ فى شرحه لقصيدة ولى الله: "أبو مدين" ﷺ، يقول:

زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد ﷺ، وقال: هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد؟ فأشير إلى شيخ كبير فى السن كان حاضراً هناك.

فقال له: هل سمعت شيئاً من كلام أبى يزيد؟

فقال: نعم سمعته. قال: "من زارنى لا تحرقه النار".

فاستغرب السلطان ذلك الكلام، فقال: كيف يقول أبو يزيد ذلك، وأبو جهل رأى النبى ﷺ وتحرقه النار؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان: أبو جهل لم ير النبى ﷺ ، إنما رأى "يتيم أبى طالب"، ولو رآه ﷺ لم تحرقه النار.

ففهم السلطان كلامه، وأعجبه هذا الجواب منه؛ أى: أنه لم يره بالتعظيم والإكرام والأسوة، واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار، لكنه رآه باحتقار، واعتقاد أنه "يتيم أبى طالب"، فلم تنفعه تلك الرؤية.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبى يزيد ﷺ ، وإنما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من أن أبا جهل لم ير النبى ﷺ ، وإنما رأى "يتيم أبى طالب".

هذه النظرة لأبى جهل هى التى نريد أن يتنزه المؤمنون عنها.

والمؤمنون - بحمد الله - لا يقعون فى هذا الإثم متعمدين، وإنما يتسلل هذا الإثم إلى بعض النفوس فى صورة لا شعورية، عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وكأنه لا شئ فيه غير البشرية.

ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية، ويركزون عليها يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين، وفاتهم أن هذه النظرة لأبى جهل إنما هى النظرة التى يتبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحاضر؛ ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم.

وما كان المستشرقون فى تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين فى ذلك زعيمهم الأكبر - فى هذه النزعة - وهو أبو جهل، وكل

من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين فى هذه النزعة، أو يتابع أبا جهل، وهم فى ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين، وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً مضت، يتزعمهم فيها أبو الجهل كله، وأبو الظلمة القلبية كلها!!

ليس هناك إذن اجتهاد وخطأ وصواب، وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة، فيتحدث الله مبيناً طبيعة رسوله الكريمة، وفطرته الرحيمة، ورأفته الواضحة، ويبين فى الوقت نفسه: أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها وليسوا أهلاً لها لفساد فطرتهم وسوء نواياهم.

من الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على: "بشر"، أو على : "يوحى إلى" حسب قوة شعوره الدينى وضعفه، فالذى لا إيمان له لا يرى إلا البشرية، ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية، ويخفف التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان، ويزداد التركيز على: "يوحى إلى" كلما ازداد الإيمان، حتى يصل الإنسان إلى ألا يرى، أو لا يكاد يرى إلا "يوحى إلى".

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله.

وهناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس. طرق: "بشراً"، أو "قل: إنما أنا بشر مثلكم".

وطرف: "يوحى إلى"، أو "رسولاً"، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولاً، وارتفاعاً، انخفاضاً وسمواً.

وإن مقياس الإيمان قوة وضعفاً، مقياس درجة الإيمان الذى لا يخطئ، إنما هو ما وقر فى القلب، أو غلب عليه، من البشرية ، أو من "يوحى إلى" إنهما يمثلان ما يوضع فى كفتى ميزان.

دع ما ادعته النصارى فى نبيهمو

واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذى لا يرى، أو لا يكاد يرى، إلا : "يوحى إلى"، ماذا يرى؟ وكيف يرى؟

ما هى النظرة التى تنأى بنا عن: "يتيم أبى طالب"؛ لتقربنا من "الأسوة"؟ كيف ينبغى أن تكون نظرة المؤمن لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليه؟

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - يلزم لها أن يصل الإنسان إلى مستواه - صلوات الله وسلامه عليه - أو إلى ما يقرب من مستواه، وذلك لا يتأتى.

بيد أنه إذا استحال ذلك فإنه من الميسور أن نورد صورتين، إحداهما: جاهلية، والأخرى إسلامية، والصورتان لسيدنا عمر ﷺ .

أما الصورة الأولى: فإنها "يتيم أبى طالب" كان سيدنا عمر يراها قبل أن يهديه الله للإسلام، وأراد سيدنا عمر أن يقتل "يتيم أبى طالب"؛ حتى لا تتفرق كلمة القرشيين بسببه، ولكن دعاء رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه : "اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بعمرو بن هشام، أو بعمر بن الخطاب"، كانت قد استجيبت لخير سيدنا عمر فهداه الله للإسلام، ولازم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فناله من بركاته، ومن خيره ما هيأه؛ لأن يكون الخليفة الثانى للأمة الإسلامية أجمع، وأن يعز الله الإسلام به فى حياة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وبعد وفاته.

إن سيدنا عمر هذا الذى لم يكن للشيطان عليه من سبيل، والذى كان إذا سلك طريقاً سلك الشيطان طريقاً آخر: خشية منه ورهبة، والذى نزل القرآن أحياناً مصدقاً لما رآه، أن سيدنا عمر صاحب: "يا سارية الجبل" يرسم لنا صورة إسلامية لسيده وحبيبه وصديقه ونبيه ورسوله - صلوات الله وسلامه عليه.

ولكن هذه الصورة: هى صورة سيدنا عمر، إنها تتناسب مع مستوى سيدنا عمر، وهو من غير شك عظيم.

ماذا كان يمكن أن يقول سيدنا أبو بكر - رضوان الله عليه؟ وماذا كان يمكن أن يقول سيدنا على ﷺ؟ وماذا كان يمكن أن يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه؟ إن الله سبحانه وتعالى يقول عنه - صلوات الله وسلامه عليه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وما كانت كلمة السيدة عائشة – رضوان الله عليها – "كان خلقه القرآن"، إلا تفسيراً لما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة، أيمكنك أن تتصور المدى الذى تبلغه الآية الكريمة، وتفسير السيدة عائشة لها؟ أيتأتى لك أن تحيط بالقرآن، أستغفر الله، وأتوب إليه.

ولنعد إلى الصورة التى حاول رسمها صاحب: "يا سارية الجبل"، لنعد إليها لتثبيتها شارحين لبعض حوادثها، موضحين لبعض أنبائها، وسنجعل الإيضاح بين أقواس.

"بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد كان جذع تخطب الناس عليه، فلما كثر الناس اتخذت منبراً؛ لتسمعهم، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتها". يروى البخارى ومسلم، وكتب السنة كلها تقريباً، وكتب السيرة "حادث حنين الجذع"، بعدة روايات، وننقل هنا إحدى روايات البخارى:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "كان النبى ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه".

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده: أن جعل طاعتك طاعته، فقال عز وجل:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(٢)

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده: أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك فى أولهم، فقال عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ﴾(٣)

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده: أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون.

﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَآ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾(٤)

١- سورة القلم: ٤.
٢- سورة النساء: ٨٠
٣- سورة الأحزاب: ٧.
٤- سورة الأحزاب: ٦٦.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار فماذا "فليس ذلك" بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله.

إن نبع الماء من بين أصابعه الشريفة – صلوات الله وسلامه عليه – لم يحدث مرة واحدة، وإنما حدث عدة مرات، رواه البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة، وروته كتب السيرة بروايات عدة، فى ظروف مختلفة، مما يدل على كثرة حدوثه، وننقل هنا إحدى روايات الإمام البخارى:

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: عطش الناس يوم الحديبية، والنبى ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ فجهش الناس، فأسرعوا، وتكاثروا نحوه فقال: "ما لكم؟" قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا من بين يديك، فوضع يده فى الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا.

قلت: كم كنتم؟

قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة. بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر، ورواحها شهر، فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح، صلى الله عليك.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله! لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى، فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك، وهى مشوية فقالت لك الذراع: لا تأكلنى فإنى مسمومة.

يروى ابن سعد فى طبقاته:

أخبرنا سعيد بن محمد الثقفى، عن محمد بن عمر، عن أبى سلمة قال: كان رسول الله ﷺ ، لا يأكل الصدقة، ويأكل الهدية، فأهدت إليه يهودية شاة مصلية، فأكل رسول الله ﷺ منها هو وأصحابه، فقالت: إنى مسمومة، فقال لأصحابه: "ارفعوا أيديكم، فإنها قد أخبرتنى أنها مسمومة"، قال: فرفعوا أيديهم، قال: فمات بشر بن البراء، فأرسل إليها الرسول ﷺ فقال: "ما حملك على ما صنعت؟" فقالت : أردت أن أعلم إن كنت نبياً لم يضرك، وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك، قال: فأمر بها فقتلت. أ. هـ.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾[1].

ولو دعوت علينا بمثلها؛ لهلكنا كلنا، فلقد وطئ ظهرك - تروى كتب السيرة أن عقبة بن أبى معيط وطأ على رقبته الشريفة، وهو ساجد عند الكعبة، حتى كادت عيناه تبرزان - وأدمى وجهك، وكسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت: "اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون".

لقد دمى وجهه - صلوات الله وسلامه عليه - وكسرت رباعيته فى غزوة أحد. روى ذلك البخارى، ومسلم، أما حديث:

"اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" فقد رواه البيهقى فى دلائل النبوة.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد اتبعك فى قلة سنك، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا فى كثرة سنه، وطول عمره، ولقد آمن بك الكثير، وما آمن معه إلا القليل.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله : لو لم تجالس إلا كفؤا لك ما جالستنا، ولو لم تنكح إلا كفؤا لك ما نكحت إلينا، ولو لم تواكل إلا كفؤا لك ما واكلتنا، فقد والله جالستنا، ونكحت إلينا، وواكلتنا، ولبست الصوف، وركبت الحمار، وأردفت خلفك، ووضعت طعامك على الأرض تواضعا منك ﷺ .

هذه صورة.

ومن الطريف أن نذكر صورة أخرى استنتاجية رجل لم يكن يعرف الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ولكنه رجل واسع الأفق رحب الخيال دقيق التفكير.

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أى مطعن، هذا الرجل هو: "هرقل"، أتاه كتاب رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - يدعوه إلى الإسلام فلم يهمل الكتاب، ولم يمزقه، وإنما قرأه فى عناية وانتباه، ثم أراد أن يكون صورة صحيحة عن صاحب الخطاب، فسأل عما إذا كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول فقيل له: إن بالمدينة

١- سورة نوح: ٢٦.

تجاراً من مكة يعرفون محمداً باعتباره من مواطنيهم فأمر بإحضارهم، وكان منهم أبو سفيان.

وسأل هرقل عن أقربهم نسباً إلى الرسول، فكان أبا سفيان فقربه منه وأدناه وقال لهم: إنى سائلة عن أمور فإن كذبنى فكذبوه.

يقول أبو سفيان، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً لكذبت عليه.

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى: لأنها واضحة من النتائج التى انتمى إليها هرقل:

إن هرقل بعد أن انتهى من الأسئلة: بدأ - عن طريق الترجمان - يقول لأبى سفيان، على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل، ومن أصحاب أبى سفيان: سألتك عن نسبه:

فذكرت أنه فيكم ذو نسب.

فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟

فذكرت: أن لا

فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتى بقول قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟

فذكرت: أن لا.

قلت: لو كان من آبائه من ملك، لقلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

فذكرت: أن لا.

فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟

فذكرت: أن ضعفاؤهم اتبعوه.

وهم: أتباع الرسل.

وسألتك: أ يزيدون أم ينقصون؟

فذكرت : أنهم يزيدون.

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟

فذكرت: أن لا

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟

فذكرت: أن لا

وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بم يأمركم؟

فذكرت: أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشكروا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق والعفاف.

فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين.

وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم: فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

هذه الصورة التى كونها هرقل بمنطقه، ويمكن أن يكونها أو يكون مثيلات لها كل إنسان اتسع أفقه، ورحب تفكيره، وكل إنسان يصدق الله والحق: لابد أن ينتهى بما انتهى إليه هرقل من قوله: "لو كنت عنده لغسلت عن قدميه"، وإنما يغسل عن قدميه، من أجل: "يوحى إلى"، إذ إن من اصطفاه الله لرسالته جدير بأن يكون أهلا لذلك.

بيد أن هذه النهاية التى انتهى إليها هرقل، إنما هى الشعار الدائم الذى لا ينتهى بانتقال الرسول إلى الملأ الأعلى، فالرسول حى بيننا الآن برسالته، وهديه وتعاليمه والغسل عن قديمه الآن، أو بتعبير آخر احترامه: إنما هو باتباع هديه، والتزام رسالته، وتقديره تقديراً يتناسب مع اصطفاء الله له ﷺ .

ولقد ركز هرقل نوعاً ما على الصدق والإخلاص، والواقع أن صورة الصدق والإخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول ﷺ ، ولم تعمه عصبية، أو حسد، أو هوى.

على أن صورة الصدق والإخلاص: كانت سمة من السمات التى اتصف بها الرسول قبل بعثته، وبعد بعثته - صلوات الله وسلامه عليه - لقد لازمته طيلة حياته، لقد كان مجرد الخبر يلقيه - صلوات الله وسلامه

عليه - يأخذه أعدى أعدائه على أنه واقع لا محالة، فهذا أمية بن خلف - عدو لدود - يتلاحى مع سعد بن معاذ ﷺ ، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة، فيقول له سعد بن معاذ فى حدة المناقشة: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنه قاتلك"، ويضطرب قلب أمية بن خلف ويسأل فى لهفة وضعف وتخاذل: أو قال ذلك حقا؟ فلما أكد له سعد بن معاذ الخبر أسقط فى يده، وقال: لئن كان قال ذلك، لقد صدق، وقتل أمية بن خلف يوم بدر.

على أن هذه الصورة تتمثل فى وضوح بين حينما أعلن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - إلى قريش نبوته، فقال لهم:

"أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقونى؟"

لقد كانت إجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التى لمسوها فيه لقد قالوا: "نعم أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذباً قط".

وصورة أخرى، صورة لم يرتب لها ترتيب مروى، ولم يؤد إليها منطق محكم، صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة، ورفقة قريبة، وإنما جاءت على البديهة، وأرحت بها الملاحظة السليمة.

إنها الصورة التى كونتها عنه - صلوات الله وسلامه عليه - أم معبد الخزاعية، وهى صورة لا تخص الجانب المعنوى منه، وإنما تتصل على الأخص بالجانب الظاهر، وأردنا أن نثبتها هنا لنثبت بها "هيئة" وظاهراً بعد أن أثبتنا زوايا من المعنويات، وجوانب من التقدير والإجلال، إن الصورة التى نثبتها الآن مجرد وصف، إنها تعبير عن ملاحظة.

هاجر رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - من مكة إلى المدينة يرافقه أبو بكر ﷺ ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر، ودليلهم عبد الله بن أريقط.

مروا بخيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة قوية الأخلاق عفيفة تقابل الرجال، فتتحدث إليهم وتستضيفهم، وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه لم يصبوا عندها شيئاً من ذلك، فقد كانت سنة من السنين العجاف، فقالت لهم:

والله لو كان عندنا شئ ما أعوزكم القرى. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى ركن الخيمة فقال:

"ما هذه الشاة يا أم معبد؟" قالت:

هذه شاة خلفها التعب عن الغنم.

فقال – صلوات الله وسلامه عليه – هل بها من لبن؟ فقالت:

هى أجهد من ذلك.

قال: "أتأذنين أن أحلبها؟".

قالت: نعم بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً.

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال: "اللهم بارك لها فى شاتها".

فامتلأ ضرع الشاة، ودر لبنها: فدعا بإناء لها كبير، فحلب فيه حتى ملأه فسقى أم معبد، فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب ﷺ آخرهم وقال:

"ساقى القوم آخرهم".

فشربوا جميعاً مرة بعد مرة.

ثم حلب فيه ثانية عوداً على بدءٍ، فغادروه عندها، ثم ارتحلوا عنها، فما لبثت أن جاء زوجها يسوق أعنزاً عجافاً هزلى فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال:

"من أين لكم هذا ولا حلوبة فى البيت"؟

قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت.

قال: والله إنى لأراه صاحب قريش الذى يطلب، صفيه لى يا أم معبد؟

قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، متبلج "مشرق" الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة "ضخامة البطن" ، ولم تزر به صعلة "لم يشنه صغر الرأس"، وسيم قسيم، فى عينيه دعج، وفى أشفاره وطف، "طويل شعر الأجفان"، وفى صوته صحل "رخيم الصوت" أحور أكحل أزج أقرن شديد سواد الشعر، فى عنقه سطح "ارتفاع وطول"، وفى لحيته كثافة، إذا صمت فعلية الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، حلو المنطق فصل لا نذر، ولا هذر "لا عى فيه ولا ثرثرة فى كلامه" أجهر الناس، وأجملهم من بعيد، وأحلامهم وأحسنهم من قريب، ربعة "وسط ما بين الطول والقصر" لا تشنؤه "تبغضه" من طول، ولا

تقتحمه عين "تحتقره" من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً له رفقاء يخصون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود "يسرع أصحابه فى طاعته"، محشود "يحتشد الناس حوله"، لا عابث ولا منفذ "غير مخرف فى الكلام".

قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولو كنت وافقته يا أم معبد لتلمست أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت لذلك سبيلاً.

هذه هى الصورة التى حاولت أم معبد رسمها.

أما سيدنا عمرو بن العاص فإنه يقول فى صراحة وصدق – عندما حضرته الوفاة وعندما تذكر الماضى فخنقته العبرات، وتحدث مع ابنه عن أشياء عدة فى صورة مؤثرة : "ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عِينى منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت: لأنى لم أكن أملأ عينى عنه".

هذا وبالله التوفيق

عميد الكلية

منيع عبد الحليم محمود

أ. د/ منيع عبد الحليم محمود